النساء رياحين

عبد العزيز بن عبد الله الخويطر

الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ

دار القمرين للنشر والإعلام

الإصدار الأول لدار القمرين

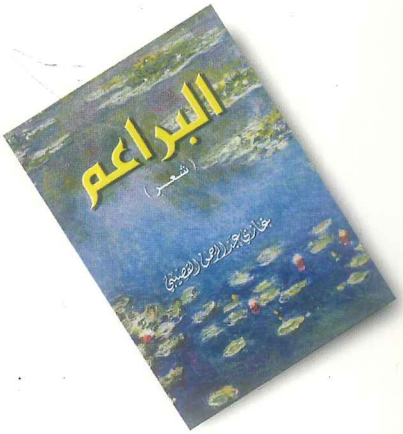

الإصدار القادم

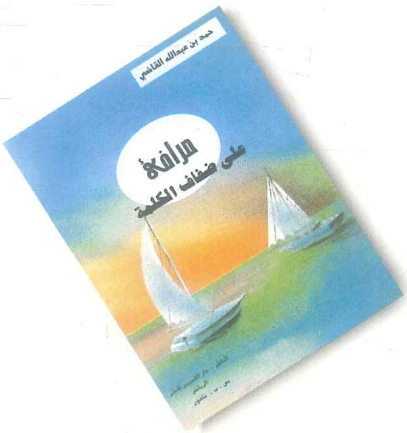

النساء رياحين

تأليف

عبد العزيز بن عبدالله الخويطر

الناشر

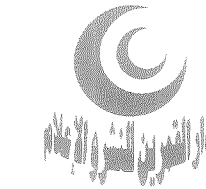

مكتب ٤٥٦٢٢٠٦ - فاكس ٤٥٦٥٥٧٦ الرياض ١١٤٩٩ - ص. ب ٤٠١٠٤

الموقع : www.alqamarain.com الإيميل: info@alqamarain.com

الطبعة الأولى

١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م

ح عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر، ١٤٢٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الخويطر، عبدالعزيز بن عبدالله

النساء رياحين / عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر.

الرياض، ١٤٢٩هـ

..ص؛ ..سم

ردمك: ٢-٠٧٢٠-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

١- المرأة في الاسلام أ. العنوان

ديوي ١, ٢١٩ ١٤٢٩/٣٣٩١

رقم الإيداع: ١٤٢٩/٣٣٩١

ردمك: ٢-٠٧٢٠-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

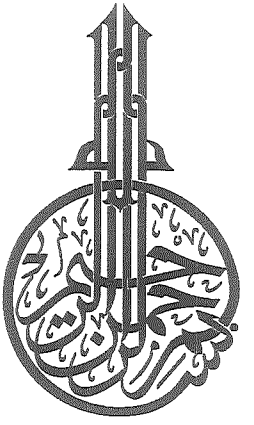

مقدمة الكتاب

حمد بن عبد الله القاضي(*)

* هذا الاصدار الثاني (لدار القمرين للنشر والإعلام) ولعل مثل هذه البدايات عن كتاب يتعلق بالمرأة تكون بداية فأل وجمال لعطاءات هذه الدار.

هذا الكتاب الصغير في حجمه الكبير في معانيه جاء عنوانه كبهاء عمن يتحدث عنهن (النساء رياحين)، أليس يتحدث عن أرق مخلوقات الله (النساء) إلا ماندر بالطبع..! أما مؤلفه فهو المربي ذو التجربة الحياتية الطويلة معالي د. عبدالعزيز الخويطر.

من هنا يأخذ هذا الكتاب قيمته ومكانته، وكم نتوق بقدر ما تُرسخ أفكار هذا الكتاب من قيمة المرأة، أن تغير مثل هذه الطروحات الواعية من قناعات بعض الرجال حول المرأة ودورها ورسالتها!!

هذا الكتاب لعله من أصدق ما كتبه د.عبدالعزيز الخويطر وحسبه أن كتب أحد فصوله "أمي وأبي".. وقد تغشي عينه الدمع، كما ذكر ذلك بين ثنايا هذا الفصل، الذي جسد فيه حدب أمه عليه، وروى فيه مواقف من سيرة حياته معها وحنانها عليه، ولعل القارئ هو الآخر

سوف يتأثر وهو يقرأ مثل هذه المواقف المضمخة بالحنان والرحمة وهو يتذكر مواقف مشابهة عاشها وسعد بها من حدب ورأفة من حملته وهناً على وهن.

إن هذا الكتاب يتحدث عن النساء وشيمهن، ويكشف عن جوانب من حكمتهن وكرمهن ونبلهن، وذكائهن الذي -كما وصفه المؤلف- يصغر أمامه ذكاء كثير من الرجال في عدد من جوانب الحياة وميادينها حتى في بعض المجالات التي هي ميدان الرجال ومكان إبداعهم.

وأزعم أنكم سوف تتفقون مع المؤلف عندما تقرؤون الكتاب مع ما أورده من

مواقف للمرأة استمدها من التراث العربي والإسلامي، وستتوفّر القناعة لديكم بأن النساء رياحين.

وما أصدق الروائي الطيب صالح الذي قال عن المرأة: (الحضارة أنثى، وكلما هو حضاري فهو أنثوي) وأقول مؤكداً بمقولة أخرى (السعادة أنثى، وكلما هو مُسعد في الدنيا فهو أنثويّ).

و(لاعزاء للرجال..!).

لكن حسبهم أن يظفروا بالسعادة التي مصدرها الأنثى.

أستشرف أن تستمتعوا بقراءة هذا الكتاب، وكيف لا وهو يتحدث عن ألطف

مخلوقات الله بل وأغلاهن.. حفظهن الله، فالحياة بدونهن أشواك بلا ورد، وليل بلا أقمار، ودياجير بلا فجر!

(*) صاحب دار القمرين للنشر والاعلام

تمهيد

* النساء نصف المجتمع، وفي كنفهن وكنف الرجال يحتضن الأطفال، ولا غرو أن تأتي إحدى مقالاتي في كتاب (إطلالة على التراث) الجزء السابع عشر عنهن، وتكون ضافية وافية.

لقد بينت فيما قلته جوانب متعددة في التراث أرت أهمية المرأة، وحرص الكتَّاب على جمع ما توافر عنها في زمنهم، وقبل زمنهم، وجاؤا بأمثلة أبرزت أضواءًا في حياتها شعت على المجتمع، وذكروا حوادث مضيئة عن مساهمتها في الحياة مساهمة تدعو إلى الفخر والإعجاب.

ونحن اليوم إذ نستعيد ماجاء في التراث من هذه القناديل المضيئة إنما نؤكد إيماننا بدور المرأة المقدر، أُمّاً كانت أو زوجة أو أُختاً أو قريبة أو شاخصاً متميزاً في المجتمع، ولعلنا بهذا ندرأ عن أنفسنا اللوم أمامها غداً عندما تتسع مشاركتها الثقافية والأدبية، فتتصدى لإبراز دورها المضيء في العصور المتعاقبة، وتتهمنا بغمط حقها.

نحن نتوقع منها أن يندلح نتاج فكرها حتى يملأ رفوف المكتبات، فتزاحم بهذا إنتاج الرجل، وعندها الآن من الامكانات مايجعلها تتطلع إلى ذلك، ونحن معها في

هذا. وإذا كان بعض الكتاب في العصور الماضية قد أدلوا بدلوهم عندما سنحت لهم الفرصة، فإننا نؤمن في مفكرات اليوم أن يسارعن في حرث هذا الحقل وزرعه، وأن يقمن بما لم يقم به الرجل، وهن أقدر وأولى، ولا عذر لهن اليوم بعد أن نهلن من العلم المتاح لهن، وبما هيء من أسبابه لهن. ونتطلع منهن، في هذا الجانب إلى الابداع والابتكار فيما يعرض، فنظرتهن تختلف عن نظرة الرجال، فهن متخصصات، ويعرفن جيداً وقع مايضعن من أحبار على الورق.

ماجاء عن هذا الموضوع جاء مختصراً،

وأعطى نماذج منها في أدبنا العربي من أقوال بديعة وصور بهية عن النساء، وعن النظرة الفائقة المنصفة المبجّلة التي كانت تأتي في حق المرأة، وتكون مقدرة من السامع، لأنها تتجاوب مع روحه، والجبلة التي خلق الله الرجال السّويين عليها.

أريد أن أهمس في أذن كل واحدة منهن أن مجال التبرير لهن -كما قلت- واضح وسهل، ومجال المنافسة لهن في حقل العلم والثقافة ميسر، إن أبدين التفاتة نابهة، وطالما حثثت كل من يحمل الشهادة الجامعية أن يساهم بجهد في

تسجيل فكر زمننا، وإشاعته بالكتابة - كل في مجاله - التي تعطي صورة متكاملة عنا، ولايقتصر الأمر على عدد محدود من الكتاب، ولكن الاستجابة لهذا الرأي لم تأت بما كنت أؤمله، فلعل الحاصلات على الشهادة الجامعية يأخذن عهداً على أنفسهن أن يفقن الرجال في هذا، فنرى تسجيلاً للتاريخ والاقتصاد والاجتماع وغيرهذا من نواحي حياتنا، وقد جرت وديانه، وسالت شعابه.

وبالله التوفيق..

أمي وأبي

* ليس هناك إنسان سويٌّ يغيب عن ذهنه والداه، سواء كانا أحياءاً أو أمواتاً، يذكره بهما، إذا اختارهما الله بجواره، كل شيء له صلة بهما، سواء كان ذلك حسيّا، أو معنوياً، مريحاً أو مزعجاً. يبقى الوالدان أمام عينيه دائماً، ويزيد استحضار ذكراهما عندما يرزق المرء أطفالاً، ثم أحفاداً، وكثيراً ماينتهي النظر، أو التدبر لأحد أعمال الابن،أو تصرفاته، بقول الوالد -رحم الله والدي- فقد مررت مع والدي أو والدتي بمثل هذا الموقف، فكان عملهما

معي بالتصرف الذي أنا الأن أعرف قدره، سواءًا كنت راضياً عنه حينئذ، أو لم أكن، ولكني اليوم، بلاشك أدرك كنهه، وما أدّى بأحدهما إلى التصرف معي بتلك الصفة.

وفي الغالب يكون عقل الوالد أكبر من عاطفته، ويتصرف تصرفاً يرمي إلى تربية ابنه تربية تهيؤه لشدائد الزمن المقبلة، وما أكثرها، أما الأم فعاطفتها تغلب عقلها في كثير من الأحيان، ويسبق عطفها النظرة التربوية الحازمة، ويكثر قول الوالد لزوجه إنك (تدلّلينه) بما لاينفعه عندما يكبر، ويبقى الأمر محيراً

عند الإبن عندما يكبر، ويتبصر في هذا الأمر، ويحتار هل فعلاً هذا (الدلال) من الأم أضر به، أو نفعه، لأن الاثنين لو لم تطعّم تصرفاتهما العاطفة، لكان الابن ضلّ الطريق، وانحرف إلى ما لايعرف سببه إلا بعد وقوعه.

•••

هذا الدلال من الأم، والعطف الذي قد يتعدى الحدود في نظر بعض الأزواج، يُبقي كفة الأمر راجحة في ذهن الابن،ويجد أن حيز الذكرى عن أمه أوسع من حيزها عند والده.

والحمدللّه أني لم أمر بمثل هذا في

صغري، لا أنا ولا أشقائي، لأن والدنا قضى جزءًا من حياته ونحن صغار بعيداً عنا، سواء عندما كنا في عنيزة، وهو في مكة، أو عندما كنا في مكة وهو في الرياض، في عمله الذي كان من الأهمية بحيث يأخذ جل وقته. لهذا لم يكن في الميدان من يزاحم الوالدة في أن تعمل من عجينة نمونا وطبعنا ما تراه الأفضل، اجتهاد إنسان تدبره فطرته، وتجربته في الحياة، وإلا فهي أمية لاتقرأ ولا تكتب، ولكنها في تربيتنا تمشي بنور الله في سيرها في هذه التربية، وعلى هديه وتوفيقه.

لقد كتبت عن والدي ما خطر ببالي وأنا أسجل ذكرياتي في كتابي (وسم على أديم الزمن) وأبنت مسلسلاً ما كانت عليه صلتي به، وأبنت مدى فخري واعتزازي به، وبما كان يتصف به من عقل في تربيتي أنا وأشقائي، وما خططه لدراستي، وما أصرّ عليه بعقله، وقاومته بأدب بعاطفتي، ولكن الله سبحانه وتعالى -وقد علم بنيته النبيلة في مسعاه هذا، كتب له النجاح، وبقي تقديري لتصرفه يزيد ولاينقص، وأباهي به. فوالدي بعقله أخذ بلبي، وطوق عنقي، ولا غرو فهو والد وأنا

ابنه- رحمه الله رحمة الأبرار، وأسكنه فسيح جنانه.

•••

وقد تحدثت كذلك عن والدتي، وأريد هنا، وأنا بصدد تعديد فضائل بعض النساء، أن لايحرم هذا الكتيب من إضاءة اسمها فيه. والحديث عنها لا أمله، وأرطب به شفتاي كلما قرب الحديث منها، وأحتار أحياناً فيما علي أن أبدأ به عنها، هل أتحدث عن محبة من حولها لها، أو هل أتحدث عن الأسباب الكامنة وراء ذلك؟، أو هل أتحدث عن تربيتها التي جاءت لنا ولها بهذه السيرة

العطرة، المبنية على تصرف حضاري فائق؟ أو هل أتحدث عن أسرتها (آل قاضي) وماجبلوا عليه من رقة، وحسن خلق، لاتكاد تجد منهم من يشذ عن ذلك؟ أو هل أتحدث عن إخلاصها ودأبها في خدمة جدي وعمتي ووالدي، خدمة لم أر إمرأة قامت بها بشغف ومتعة، وكأنها تُخدم لا تخدم.

سأترك هذا وأكثر منه، لأني لو بدأت بشيء من هذا لكتبت مجلداً كاملاً، ولايوفيها حقها. وسألجأ إلى بعض ما لا أزال أذكره من بعض جوانب عطفها وحنانها، ومظهر من مظاهر اهتمامها،

وحمل أثقال من المسؤولية تجاه أبنائها، وهي وحدها أمام تنشئتهم، ومقابلة ظروف الحياة من رعاية شخصية، ومتابعة دراسة، وتطبيب وتمريض، ومعالجة هموم الأطفال في الصغر، والتغلب على أوهام الأطفال، التي يحملها أطفال مثلهم في المدرسة، وحسن اختيارها للقصص، التي اعتاد الامهات قصها على صغارهم.

•••

تظهر عاطفتها بصورة جلية عندما يحدث لأحدهم مايزعجه،وأبرز هذه الأمور المرض، ولا أنسى بحال من

الأحوال جلوسها بجانب فراشي أنا وأخي حمد عندما اصبنا بالجدري، وكان أسوأ شيء (الحكة) التي تصحب (نفخات) فقاقيع الجدري، مما لايستطيع الكبير مقاومته، فما بالك بالصغير، ومثل غيرها من الأمهات، ربطت قماشاً على يدينا، حتى لانحك، وتقول -عليها رحمة الله- بأننا كنا نغافلها، فإذا وجدتنا نحك نبهتنا على أن ندبات تبقى بعد أن يشفى المجدور، ثم يناديه الأطفال (بالخرش)، وهذا يزعجنا، وقد نبهتني في إحدى مرات الحك، وأخبرتني -رحمها الله- بأني

رددت عن نفسي التهمة بقولي إني لا أحك، ولكني أملثه تمليثاً (أي أملسه تمليساً) بلثغة الصغر المعتادة لمثل هذه السن.

والحصبة أشد وأنكى، لان حرارتها فوق الطاقة، وكان بجانبها (طاسة غرش) وعاء به ماء، تضع يدها فيه، ثم تضعها على جبيننا، أنا علي يمينها وحمد على يسارها، فإذا عتق الطفل من هذين الداءين هنئ أهله أنه ولد من جديد، ومن يموت بها أكثر ممن يحيا، وأحد أقاربنا لم يبق له من أثنى عشر طفلاً إلا إثنان، وأكثر من راح منهم بعد أن مر

عليه سنتان مات بالحصباء أو الجدري، وحق الحصباء تسمى الحصداء، لأنها تحصد الأطفال.

كنت هزيلاً في صغري، ويبدو أن ضعف بنيتي جعلني -باذن الله- عرضة لبعض الأمراض الشائعة، وأبرزها، بعد وباء الجدري والحصباء، الملاريا والملاريا يبدو أن جرثومتها ينقلها (الناموس) البعوض الذي يتربى في البساتين المحيطة بعنيزة، وتكاد الملاريا تكون متوطنة في وادي الرمة، وكثير من الناس يتفادى النوم حسب ما أذكره قريباً من الوادي، وأذكر أني وأنا صغير أصبت

بحمى، قيل في تلك الأيام، إنها ملاريا، وكان دواؤها حينئذ حبوب (الكينة) وتسمى عندنا (قناقينة) وتعود اليد الحنون إلى وعاء الماء، ومسح جبيني به، لتخفيض الحرارة، وأرى الشفائف وهي تردد آيات من القرآن، وأرى مسحة الألم على وجهها.

•••

أكتب هذا الأن وعيني قد تغشاهما الدمع، فلا أكاد أتبين مواقع القلم. أُمٌّ أمامها طفل هزيل، يعاني حمى تنفضه نفضاً، لا حيلة لها إلا اللجوء إلى ربها بالدعاء، وتلاوة القرآن، ووسيلة

بدائية ماء، ليس بارداً، تطفئ به ناراً موقدة في جسم لم يبق فيه إلا الجلد والعظم، وتشاهد عينين شبه مقفلتين ناعستين، وفم رائحته حُمى فتاكة، ورأسه يدار يميناً ويساراً دون هدف إلا البعد عن (المخدة) التي امتلأت بنزيف عرق الحمى.

أُمٌّ هذه صفتها، وهذا عملها، وهذه حالتها، هل لها جزاء إلا الدعاء ممن لايملك إلا الدعاء ممن يملك الاستجابة، أو الصدقة وعمل الخير، برجاء أن يعود ثواب هذا لها.

ومرض الابن أو البنت همٌّ الأمّ الأول،

فإذا مرض أحدهما، فلا تهنأ بنوم، ولا تتمتع بطعام، مشدوهة البال، لاتكاد تعي ما حولها، لاحيلة لها، ولا حيلة لمن حولها، ولا طبيب يواسي، ويوضع عليه الأمل بعد الله. لاحيلة إلا وتجرب، ولا أمل يبرق في الأفق إلا وتجري إليه لئلا يفوتها. قلبها يخفق عند كل حركة من مريضها، وينصهر هذا القلب المسكين عند كل أنَّة من ألم أو ضعف، فإذا كان المريض يتألم جسماً، فهي تتألم جسماً وروحاً، ومريضها لايدرك خطورة ماهو فيه مثلما تدرك هي، مصيبة هي في إدراكها، أو مغالية في تصورات خيالية سوداء

نتيجة تدهور أعصابها، وماتذكره عن مرض فلان أو فلانه.

وأصبت بمرض في الصدر، قد يكون التهاباً، ومررت بالدور الذي مررت به في أمراضي السابقة، ولمست الحنان نفسه، والعناية نفسها، والفرحة عندما شفيت لاتكاد توصف.

•••

ماذكر أحدٌ والدته بجميل ذكر إلا ظننت أن والدته لا تصل إلى معشار ما كانت عليه والدتي، وما جاء منها نحونا، أبناءها، (وكل ابنة بأبيها معجبة)، لأن ما أسمع غيرما عشته، بكل حواسي،

وبقى منقوشاً في شعوري، ومنحوتاً في عمق ضميري. ما قرأت خبراً عن عطف أم على ولدها إلا قفزت صورة أمي في أحد تصرفاتها نحونا، نحن أبناءها.

•••

لما كبرنا، أختلف حيّز الهمّ في صدرها، فلا تطمئن إلا عندما نعود إلى البيت، هي لاتظهر هذا، ولكننا نعرفه، لأن التعبيرعلى وجهها صفحة ناصعة تُظهر ما تخفيه، مهما حاولت أن تخفيه.

هي لاتعرف العتاب، ولا تعرف المساءلة، وعلينا أن نعرف ما يهمها، فنزيل أسبابه، قالت لي مرة، وهي

محقة في إحساسها، أرجو أن ابني حمد بخير -وكان يدرس في فرنسا- لأن صورته أمامي وكأنه يعاني من شيء. قلت لها إنه بخير، وأنه وردني منه خطاب قبل يومين. وقد كانت محقة في شعورها، فقد كان حمد يعاني من مرض الشغار،وهذا يأتي في الكبد، فيصفر الجسم والجلد منه. ورغم طمأنتني لها، عرفت من وجهها أنها لاتزال تظن أن به شيئًا، وهي امرأة تسبح روحها أحياناً في الأفق، فتحس بأشياء تحدث أحياناً كما تصورت، وقد شرحت بعض المواقف التي تمثل هذا في كتابي (وسم على

أديم الزمن) ولعله في الجزء الرابع أو الخامس، وهما يمثلان ذكرياتي في مكة المكرمة.

•••

لن أطيل، وسوف أقفز إلى مرحلة سفري إلى مصر للدراسة الجامعية، ثم إلى انجلترا، لدراستي للدكتوراه، ثم عودتي إلى المملكة.

عندما عدت إلى المملكة وجدتها - عليهارحمة الله- قد جمعت كل كتبي وأوراقي الدراسية، ومكاتباتي مع زملائي وغيرهم في صناديق من حديد، ووضعت عليها أقفالا، مفاتيحها عندها،

وعلى الله، ثم على هذه الكتب والأوراق، اعتمدت في كثير مما كتبته في مذكراتي، وكانت تنقل هذه الصناديق من بيت إلى بيت، من البيوت المستأجرة، إلى أن استقروا في بيت يملكه الوالد، -رحمه الله- في مكة، هي ترعاني وأنا رجل، بالتفاتها لأوراقي ودفاتري، وهذه المحفوظات اليوم في عيني ذخيرة لا تقدر بثمن، فمن بينها أوراقي ودفاتري، وكتبي في المرحلة الابتدائية والثانوية. وكلما نظرت إلى كتاب منها، أو دفتر (كراسة) أو ورقة، وقفت متأملاً هذه العناية، وداعياً لها على هذه العناية الفائقة،

لقد كانت تقف بنفسها على حملها من بيت لبيت، إلى أن سلمتها لي. ألا يحق لعيني أن تدمع كلما رأت شيئاً منها.

•••

حرصت عندما عدت من البعثة، بعد حصولي على الدكتوراه، أن أنقل والدتي وأختيّ، بمجرد أن استقريت في الرياض، وصار عندي بيت، في الرياض، لنكون معاً، وأعوض عن الغياب الطويل، الذي لابد أنه شغل ذهنها، وقبل وفاتها جمع الله شملها بعودة الأخ حمد من فرنسا من دراسته، ومن عمله ملحقاً ثقافياً فيها، وممثلاً للمملكة في اليونسكو، فتوفيت -

رحمها الله- قريرة العين برؤية أبنائها، وبعض أحفادها، وقد كانوا لها ملء السمع والبصر، وقرت عينها بهم، وأعطتهم من العطف والحنان مثلما أعطتنا، وكانت ملاذهم، بعد الله عندما (يتشاقى) أحدهم، ويستحق التأديب أن (يندس) خلفها، وقد لاذ حينئذ، بعرين الأسد، ولكنه عرين مليء بالدفء والحنان.

•••

•• لم أتكلم عن الأخوات العزيزات، ولا البنات الكريمات، لأني أعرف أن شعورهن مثل شعوري تجاه كل من تحدثت عنه. هذا جانب، والجانب

الآخر أنهن أمهات لأبنائهن، فليأخذن ما قلت على أنه أت من أبنائهن لهن، وحقوق الطبع في هذا غير محفوظة، بل مشاعة ومشاعة ومشاعة. بل (مُ شَ اعَ ةٌ !!).

سأقف هنا، وأرجو الله أن يجزيها عنا خير الجزاء، وأن يجمعنا وإياها في جنته، إنه نعم المولى ونعم المجيب.

وصلى الله علي سيدنا محمد وآله وصحبه.

تحية للنساء[1]

* خلق الله الرجل، وخلق المرأة، وجعل اكتمال المجتمع بهما، وعمار الكون باقترانهما، ويسّر كل منهما لعمل قد لايجيده الثاني، إما لامتياز جسمي، أو لاختلاف بدني، أو لمجال اكتساب طبع هيئ لأحدهما ولم يُهيأ للآخر، ولكنه قرّب بينهما في أمور، منها الأمور الذهنية،ومايأتي منها، مما قد يكون لدى أحدهما من عقل، وتدبر، وتبصر، وملكة طبعية أو مكتسبة أوفر من الآخر، وجعل أحدهما يبز الآخر عند

(١) نشرت مقالة في الجزء السابع عشر من كتابي "إطلالة على التراث".

الحاجة، وعند الاختبار، من ذلك سرعة البديهة، وحسن الجواب، وسرعته، ومنه المقدرة على تحليل الحوادث، والوصول إلى نتائج تأتي بالفائدة المطلوبة.

وجاء التعليم الآن، واكسب المرأة ما لم تكتسبه في الماضي، وزاحمت الرجل في مجالات تبيّن أنها فيها أقدر من الرجل، ونتائج عملها أكثر دقة، وكان من طبيعة تكوينها ما ساعدها على ذلك، ففي الطب مثلاً نعومة أناملها، ولين عاطفتها، وأناتها، أعطتها، مع حسن الاستفادة، وطول التجربة، ما شهد لها به القريب والبعيد.

وقصص النساء اللائي جئن، في وقت الشدّة، منقذات لرجالهن من (ورطة) وقعوا فيها، أو مصيبة حلّت بهم، فكنّ نعم العون، كثيرة، وكتب الأدب والتاريخ تزخر بما سجل من هذه الأعمال.

وسيأتي يوم، بعد أن انتشر التعليم النسائي، ووصلت فيه النساء إلى أعلى مراتب العلم، من يتصدى منهن لجمع مادُوِّن، وإلقاء الضوء على ما كمن خلف العمل من عقل راجح، وذهن صاف، وحسن تصرّف، وسداد خطو،ودقة تحرك، وإتقان احتيال.

وقد جاء الاعتراف بفضلهن على

ألسنة خيّرين في كل العصور الحضارية التي مرت، وقد أشيد بما ظهر منهن من تميز، أمهات، وزوجات، وبنات، وأخوات، وليس من بيننا ممن سرت الحضارة الإسلامية في دمه إلا وهو يقر لأمه بالفضل الكبير، ويكن لأخته الاحترام الكامل، ويضمر لابنته الحب والعطف والحنان، ولزوجه التقدير، يشمل هذا العمة والخالة والجدة، والمربية، والجارة.

ولاينكر فضلهن إلا عاق، جاهل، ناقص العقل، فاسد التربية، أو معقّد لايُعد من الأسوياء.

وقد استوقفتني قصة من الماضي البعيد، كان الإشعاع فيها، أولاً وآخراً،جاء من المرأة، فراحت لرأيها بالفضل الكبير.

والقصة جذابة في سبكها، وتغري بالالتفات إليها، فالدرّ كامن بين طياتها المضحكة والمبكية، لاتحتاج لاصطيادها إلي غوّاص ماهر، ولا سبّاح نادر، والقصة كما يلي:

كان بالكوفة امرأة لها زوج، قد عُسر عليه المعاش، فقالت له:

لو خرجت، فضربت في البلاد، وطلبت من فضل اللّه -تعالى- رجوتُ أن ترزق

شيئاً.

فخرج إلى الشام، فكسب ثلاث مئة درهم، فاشترى بهاناقة فارهة، وركبها قاصداً الكوفة، وكانت زعرة (أي شرسة)، فأضجرته، واغتاظ منها، ومن زوجته، وإخراجه، وتقطيعه بأسفاره، فبدر لسانه فيها بأن حلف بطلاق امرأته أنه يبيعها، يوم يدخل الكوفة، بدرهم!!

وسكن من حرده، فندم أشد ندامة، واغتمّ أعظم غمّ، وقدم الكوفة.

فقالت له زوجته: إي شيء جئت به معك؟

ورأته مغتماً.

قال: لاشيء.

فقالت له: فهذه الناقة لمن؟

قال: لا أدري لمن تحصل له، وحدّثها بحديثه، وما جنى عليه حَردُهً، وجرَّ لسانُه.

فقالت له: أحتال لك حتى لاتحنث، ولا تخيب، وعمدت إلى سنّور (قطة)، فأخذتها، وعلّقتها في عنق الناقة، وقالت:

أدخلها السوق،وناد عليه: من يشتري هذا السِنَّور بثلاث مئة درهم، والناقةَ بدرهم واحد، ولا أفرّق بينهما؟

فدخل السوق،وفعل ذلك، فجاء أعرابي يدور حول الناقة، وجعل يقول:

ما أسمنك..! ما أفرهك..ّ ما أحسنك..ّ ما أرخصك..ّ لولا هذا المشارك في عنقك.

(الهفوات النادرة ص: ٥٨)[١]

ولابد أن الناقة بيعت، وأطلق سراح القطة، وبقي الفضل للّٰه ثم لهذه المرأة الذكية، التي تغلبت على النقص في عقل زوجها. ومن عمله وعملها، يبدو أنه ليس أهلاً لها، فهو عاطل كدّ، وهي التي دفعته

(١) دار الشريف للنشر والتوزيع - الرياض، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.

إلى أن يحتال لرزقه، ثم كسب نتيجة نصحها، ولكنه تصرف بغباء، فاشترى ناقة شرسة مشاكسة، ولم يستشر أهل المهنة، والعارفين بالصنف.

ثم عند أول مشكلة يحلها على حساب زوجته، أو ضياع ماله، فيسارع إلى الحلف بالطلاق، ولولا أن المرأة عاقل، لَحدّته إلى أن يسيرفي أمر الطلاق، ولم تحتل على بيع الناقة وأثبتت خَرَقه، وعدم نفعه زوجاً، وطلبت الطلاق منه.

ولم يخرجه من هذه الحفرة، التي أوقع نفسه فيها، إلا امرأته، فكان هو طوال الوقت مثل كيس الخيش الفارغ

ما دامت ممسكة به، رافعة له، فهو مستو على سوقه، فإذا تركته سقط على الأرض كومة لا خير فيها.

لاشك أن ميزانها رجح على ميزانه، ونالت قصب السبق، ومنتهى الحمد.

•••

كان الكتّاب في الماضي رجالاً، فكانوا يهتمون بأمور الرجال، وإذا كان هناك أديبات فإنهن لم يتصدين للكتابة، ولعل هذا راجع إلى انشغال المرأة ببيتها وأطفالها، وأسباب العيش أحياناً، ولو كان هناك مشاركات في الكتابة، لرأينا لهن اهتماماً ببنات جنسهن، لأن هناك

بصيص نور يضيء متسللاً بين صفحات ما يقال في مؤلفات الأدباء والكتاب، فقد تأتي قصة عن شجاعة امرأة، أو مروءتها، مما سار به الركبان، أو عن كرمها، أو ما إلى ذلك من الأعمال الحميدة، التي كانت مجالاً للكتابة بإسهاب عن الرجال الذين اتصفوا بها.

وأمامي الآن قصة مناسبة، رواها صاحب كتاب: (المختار من نوادر الأخبار)، للمقري (ص١٠)[١].

(كانت خالة حاتم الطائي سخيّة، لاتترك شيئاً إلا جادت به، فحظر

(١) شمس الدين محمد بن أحمد المقري الأنباري، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، مكتبة القرآن، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.

عليهاإخوتها، حتى ذاقت طعم الفقر والجوع، فظنوا أنها وجدت ألم الضيق، فأطلقوها، ودفعوا لها صرمة (قطعة ما بين عشرين إلى ثلاثين)[1] من الإبل، فأتتها سائلة، فقالت:

دونك الصرمة، لقد عضّني الجوع، فلا أمنع بعدها سائلاً أبداً).

وهكذا يتبين،إذا صحت هذه القصة، أن الجود في هذه الأسرة، وأنه يجري في دمها، وأن لذة الإنفاق تفوق لذة الحيازة، وكنت أحياناً أشك فيما يكتب عن حاتم الطائي،حتى رأيت فعل (أبو

(١) وقيل إن القطعة مابين عشرين إلى خمسين.

سليمان) محمد الحمد الشبيلي، فقبلت كل ما يقال عن حاتم ذلك الزمن بعد أن رأيت حاتم هذا الزمن، وحاتم زمننا هذا يذهب يبحث عن الناس، ولا ينتظر حتى يأتوه.

وهناك موقف امرأة أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قالت قولاً معجبا، ولأنه حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يبقى الجزم بصحته مطلوبا من علماء الحديث، ومع هذا، وبصرف النظر عن صحته فإن ماجاء به من قول سديد، ورأي منير، وإحاطة بالأمر يستحق أن يذكر، ولم يذكر على

لسان امرأة إلا لأنه لائق بها أن تفكر هذا التفكير، وأن تقول هذا القول، أو لعلّ من حبّر هذا توقّع مثل هذا، والقصة وردت في كتاب (المختار من نوادر الأخبار ص: ٨٨).

وفدت أسماء بنت يزيد الأشهلية الأنصارية، محدثة فاضلة، شهدت اليرموك،وروت أكثر من ثمانين حديثاً عن الرسول صلى الله عليه وسلم على النبي صلى الله عليه وسلم، فقالت:

بأبي أنت وأمي، يا رسول الله، إنه ليس في شرق البلاد وغربها امرأة إلا وهي مثل رأيي: إن الله -تعالى- بعثك

إلى الرجال والنساء، فآمنا بك، وبإلهك الذي بعثك.

وإنا معشر النساء محصورات مقصورات، قوّامات بيوتكم، وحاملات أولادكم، وحافظات أموالكم، وخوالفكم في سفركم، وممرضات في الحضر، وإنكم يا معشر الرجال، فُضّلتم علينا بالجُمع والجماعات، وعيادة المرضى، وشهود الجنائز، والحج والعُمرة،وأفضل من ذلك كله الجهاد في سبيل الله، وإنكم إذا خرجتم حجاجاً ومجاهدين، وتجاراً ومسافرين، حفظنا لكم أموالكم، وربينا لكم أولادكم، ثم غزلنا لكم الأثواب،

وجمعنا لكم الطعام.

أفنشارككم في الأجر،يارسول الله؟

فأقبل النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه، وقال لهم:

هل سمعتم مقالة امرأة قط أحسن من مقالتها، في حسن مساءلتها عن أمر دينها؟

ثم أقبل عليها فقال:

ارجعي، أيتها المرأة، فأخبري من وراءك من النساء، أن حسن تبعل إحداكن لزوجها، واجتنابهاسُخطه، واتباعها مرضاته، يعدل ذلك كله.

فولت المرأة تكبرٍ وتهلل استبشاراً.

وهناك في كتاب: (المختار من نوادر الأخبار ص٩٥) قصة جميلة، ولا أشك أنها منحولة، وأن الكاتب الذي كتبها، والأديب الذي زوّقها، سبح في الخيال حتى جاء بها في هذه الصورة، ولعل القصد لَمزُ مروان بن الحكم، ومعه حُكم معاوية والأمويين.

إلا إني أوردها لأنها في صف المرأة، وما قد يأتي منها من نبل يصغر بجانبه نبل بعض الرجال، ولأنها تكشف عن الفكر في ذلك الزمن، وما يدور فيه، وما يقبله، أو يتوقع أنه يقبله، ولقد أجاد الكاتب في ترتيب خطوات هذه المسرحية، وسوف

تقنع أناساً كثرين، عندما يقرؤونها، بأنهاحقيقة واقعة، دون توقف منهم وتبصر أمام نقط الضعف، وأهمها الآفة الكبرى في النحت في ذلك الزمن، وهي الصدفة، فقد كان اليوم شديد الحر، والأعرابي في شدة منه، وصادف مجيؤه أن معاوية نفسه كان يطلب نسمة هواء، فصادف جلوسه رؤية الرجل، ثم تدَرُج القصة رخاء كسفينة في بحرٍ هادئ، لايعوقها عائق عن الوصول إلى ما كان في ذهن الكاتب، من حسن الظن في نبل عاطفة المرأة، وتفضيلها زوجها الذي أكلت معه الحلو فلم تنسه، فكان لها

من ذلك ما جعلها تتحمل راضية المرّ، ولم يُضع الله أجرها، بحسن نيتها، ووفائها،فعوضها خيراً، عوَضها حبيبها، ومعه مال لها وله، جزيل واف.

ولو تأكدنا من صحة الحادثة لقلنا أنها أصابت الهدف برفضها معاوية، لأن معاوية قد لا تطول مدتها معه، فأذا صوّح نبتها، وكسف بدر جمالها، وذوى شبابها، رُميت رمي النواة، أما مع زوجها فقد ضمنت أن اليد التي أسدتها له لن تذهب مع الرياح، وهذه هي القصة الممتعة:

قيل: جلس معاوية بن أبي سفيان

بمجلس كان له بدمشق، وكان ذلك الموضع مفتّح الجوانب، يدخل منه النسيم، فينما هو جالس ينظر إلى بعض الجهات، وكان يوماً شديد الحر، لانسيم فيه، وكان وسط النهار، إذ نظر إلى رجل يمشي نحوه، وهو يتلظى من حرّ التراب، ويحجل في مشيه حافياً، فتأمله معاوية، وقال لجلسائه:

هل خلق الله أشقى ممن يحتاج إلى الحركة في مثل هذه الساعة؟

فقال بعضهم: لعله يقصد أمير المؤمنين.

فقال: والله، إن كان هوقاصدي

لأعطينّه، أو مستجيراً لأجيرنّه، أو مظلوماً لأنصرنه، يا غلام، قف بالباب، فإن طلبني هذا الأعرابي، فلا تمنعه الدخول. فخرج الغلام، فوافى الأعرابي، فقال:

ماتريد؟

قال: أمير المؤمنين.

قال: ادخل.

فدخل وسلّم على معاوية.

فقال: ممن الرجل؟

فقال: من تميم.

قال: ما الذي جاء بك في هذا الوقت؟

قـــال: جـئـت إلـيـك شـاكـيـاً، وبـك مستجيراً.

قال ممن؟

قال: من عاملك مروان بن الحكم، وأنشد:

معاويَ، ياذا الجود والحلم والفضل
ويا ذا الندى والعلم والرشد والبذل
أتيتك لما ضاق في الأرض مذهبي
فيا غوثُ، لاتقطع رجائي من العدل
وجد لي بإنصاف من الجائر الذي
بلاني بشيء كان أيسره قتلي
سبانيَ (سعدَى)، وانبرى لخصومتي
وجار، ولم يعدل، وغاصبني أهلي

وهم بقتلي غير أن منيَّتي
تأنَّت، ولم أستكمل الرزق من أجَلِي

فلما سمع معاوية إنشاده ، والنار تتوقد فيه قال: مهلاً، يا أخا العرب ، اذكر قصتك ، وأفصح عن أمرك .

فقال: يا أميـــر المؤمنين، كانـت لـــي زوجة، وهي ابنة عمي، وكنت لها محباً وبها كلفاً، وكنت بها قرير العين، طيب العيش، وكان لي صرمة (قطعة) من الابل، استعين بها على قيام حالي، وكفاف أودي، فأصابتني سنة (عام مجدب) ذات حطمة شديدة، أذهبت الخف والظلف، وبقيت لا أملك شيئا.

فلما قل ما بيدي، وذهب مالي، وفسد حالي،صرت مهانا، ثقيلا على وجه الأرض، قد أبعدني من كان يشتهي القرب مني، وأزور عني من كان يرغب في زيارتي.

فلما علم أبوها ما بي من سوء الحال، وشرّ المآل، أخذها مني، وجحدني، وطردني، وأغلظ عليَّ، فأتيت إلي عاملك: مروان ابن الحكم، مستصرخاً به، راجيا نصرته، فأحضر أباها،وسأله عن حالي.

فقلت: أصلح الله الأمير، إن رأى أن يحضرها ويسألها عن قول أبيها، فليفعل.

فبعث إليها مروان، وأحضرها مجلسه، فلما وقفت بين يديه، وقعت منه موقع الإعجاب، فصار لي خصماً، وعليَّ منكراً، فانتهرني، وأظهر لي الغضب، وبعث بي إلى السجن.

فبقيت كأنما خررت من السماء إلى مكان سحيق، ثم قال لأبيها:

هل لك أن تزوجنيها على ألف دينار لها، وعشرة آلاف درهم لك، وأناضامن لك خلاصها من الأعرابي.

فرغب أبوها في البذل، وأجابه إلى ذلك.

فلما كان من الغد، بعث إليَّ، وأخرجني

من السجن، وأوقفني بين يديه، ونظر إليَّ كالأسد الغضبان.

وقال: يا أعرابي، طلّق سعدي.

قلت: لا أطلقها.

فسلّط عليّ جماعة من غلمانه، فأخذوا يعذبونني بأنواع العذاب، فلم أجد بدّاً من ذلك، ففعلت، ثم أعادني إلى السجن، فمكثت فيه إلى أن انقضت عدتها، فتزوجها، ودخل بها، وأطلقني بعد ذلك.

وقد أتيتك راجياً، وبك مستجيراً، وأنشد:

في القلب مني نار

والنار فيها اســـتعار

والجسم مني ســقيم

فيه الطبيب يحـــار

وفي فؤادي جمـــــر

والجمر فيه شرار

والعين تهطل دمعـاً

فدمعهـــــا مـــدرار

وليـــس إلا بربـــي

ثم الأمير انتصـــار

فاضطرب، وخرّ مغشيّاً عليه، وصار يتلوى كالحية المقتولة.

فلما سمع معاوية كلامه وإنشاده، قال:

تعدّى، وظلم ابن أبي الحكم في حدود الدين، واجترأ على حُرَم المسلمين، ثم قال:

والله يا أعرابي، لقد أتيتني بحديث لم أسمع بمثله، ثم دعا بدواة وقرطاس، وكتب إلى مروان بن الحكم:

(قد بلغني أنك اعتديت على رعيتك، وانتهكت حرمةً من حُرَم المسلمين، وتعدّيت في حدود الدين، وينبغي لمن يكون والياً أن يغضَّ بصره عن شهواته، ويزجر نفسه عن لذّاته)

ثم كتب إليه بعد، كلاماً اختصره الراوي يقول فيه:

وُلّيت ويحك أمراً لست تدركه
فاستغفرُ اللّه من فعل أمرئ زانِ
وقد أتانا الفتى المسكين منتحباً
يشكو إلينا ببَثّ ثم أحزان
أُعطي الإله يميناً لا أكفّرها
نعم، وأبرأ من ديني وديّاني
إن خالفتني فيما كتبت به
لأجعلنَّك لحماً بين عقبانِ
طلِّق (سعاد) وجهِّزها معجلة
مع (الكميت) ومع (نضر بن ذبيان)

ثم طوى الكتاب، وطبعه بخاتمه، واستدعى الكميت، ونضر بن ذيبان، وكان يستنهضهما في الحوائج لأمانتهما.

قال: فأخذاه وسارا حتى قدما المدينة، فدخلا على مروان بن الحكم، فسلما إليه الكتاب، وأعلماه بصورة الأمر، فجعل مروان يقرؤه ويبكي، وقام إلى سعدى، فطلقها بحضرة الكميت ونضر ابن ذيبان، وجهزها إليه مع الرسولين المذكورين، وكتب مروان كتاباً، اختصر المؤلف منه فصلاً، قال فيه:

لاتعجلنّ أمير المؤمنين فقد
أوفى بنذرك في رفق وإحسان
وما أتيت حراماً حين أعجبني
فكيف ادعى باسم الخائن الزاني؟
أعذر، فإنك لو أبصرتها لجرت

منك الأماني على تمثال إنسان

فسوف تأتيك شمس ليس يعدلها

عند الخليفة من إنس ومن جان

ويقول مؤلفها أو ناقلها أنه بقي من هذه القصيدة أبيات أعرض عن ذكرها.

وختم الكتاب، ودفعه إلى الرسولين، وسلمهما الجارية، وسارا حتى وصلا إلى أمير المؤمنين، فسلما إليه كتاب مروان، فقرأه معاوية، فقال:

أحسن في الطاعة، وأطنب في ذكر الجارية، وحسنها، ثم طلب الجارية، فلما رأها دُهش لحسنها وجمالها، عجب من هيئتها، وقدّها، واعتدالها، فخاطبها،

فوجدها أفصح النساء، بعذوبة منطق، فقال: عليَّ بالأعرابي.

فأتى إليه، وهو في غاية من سوء الحال.

فقال: يا أعرابي، هل لك عن سعدى من سلوة، وأنا أعوضك عنها ثلاث جوارٍ أبكار، مع كل واحدة ألف دينار، وقسم لك من بيت المال مايكفيك في كل سنة، ويعينك على صحبتهن ؟

فلما سمع الأعرابي كلام معاوية، شهق شهقة، ظن معاوية أنه قد مات.

فقال له معاوية: ما بالك؟

قال: شرّ بال، وأسوأ حال، استجرت

بعدلك من جور (ابن الحكم) فبمن استجير من جورك، وأنشد

لاتجعلنّي فَداك اللّه من ملك
كالمستجير من الرمضاء بالنار
أردد سعاد على حيران مكتئب
يمسي ويصبح في همّ وتذكار
أطلق وثاقي ولا تبخل عليّ بها
فإن فعلت فإني غير كفار

ثم قال: واللّه، يا أمير المؤمنين، لو أعطيتني ما حوته الخلافة، ما أعتضته دون سُعدى، وأنشد

أبَي القلب إلا حب (سُعدَى) وبُغِّضت
إليَّ نساء ما لهن ذنوب

فقال معاوية : يا أعرابي، أنت مُقرّ أنك طلَّقتها، ومروان أقرَّ أنه طلَّقها، ونحن نخيرِّها، فإن اختارت سواك، زوَّجناها منه، وإن اختارتك رجعناها إليك

قال : إفعل، فلا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

فقال لها معاوية : ما تقولين، يا سعدى؟ أينا أحبُّ إليك : أمير المؤمنين، في عزه وشرفه، وسلطانه وقصوره، وما تصيرين عنده، أو مروان بن الحكم في عسفه وجوره، أو هذا الأعرابي، في جوعه وفقره، وسوء حاله؟

فأنشدت :

(هذا) وإن كان ذا جوع وإضرار
أعز عندي من قومي ومن جاري
وصاحب التاج أو مروان عامله
وكلٌّ ذي درهم عندي ودينار

ثم قالت: والله يا أمير المؤمنين،ما أنا بخاذلته من أجل حادثة الزمان، ولا لغدرات الأيام، وإن لي معه صحبة قديمة لاتُنسى، ومحبَّة لا تَبلى، وأنا أحق من صبر معه على الضرَّاء، كما تنعَّمت معه في السراء.

فتعجب معاوية من عقلها ومروءتها، وأمر لها بعشرة آلاف درهم، وكسوة، وللأعرابي بمثل ذلك وردّها بعقد

صحيح).

هذه هي القصة، وفيها كلف فضح الأديب الذي أنشأها، وأمَّل أن تُقبل على أنها حدثت، وأظهر كلف فيها هذا الشعر المفتعل، ليتماشى مع القصة ولو بقي بين المرأة وزوجها لقُبل، أما أن يؤتى به على لسان معاوية أو مروان فغير مقبول، ويُذكِّر بما ورد في كتاب (إعلام الناس).

والكلف الثاني بكاء مروان، فلماذا يبكي، وممَّ؟ وقد أقدم على فعلته مختاراً، ألم يعلم أن فعله مخالف للدين، لينتظر من معاوية

أن يذكره به؟!

•••

وحسن الرد، وسرعة البديهة، من الفضائل التي تميز شخصاً عن آخر، وهذه أم الفضل بن سهل، رغم ما هي فيه من حزن، لم تذهل عن حسن المنطق، وسرعة الرد، وإصابة بديهتها مرماها، والقصة قصيرة، ولكنها مضيئة، ووردت في: (المختار من نوادر الأخبار ص: ١١٣).

(دخل المأمون على أم الفضل بن سهل، وقد مات ولدها الفضل، وهي تبكي بكاء شديداً، فقال: مه، يا أم الفضل، أما

ترضين أن أكون لك عوضاً عن ابنك؟.

قالت: أفلا أبكي على ابن اكسبني مثلك؟

وندلف إلى قصة إن كانت حدثت فللّه در قائلتها، لقد أحسنت القول، وأخذت بمجامع الحكمة، ودلت أنها استفادت من تجارب الحياة، ولديها عصارة صافية منها، سكبتها بين يدي ابنتها، وأن تكن مؤلفة فللّه در من ألَّفها، لقد أتقن الخيال، وأحسن القول، وتحدَّث عن بصيرة، وقال عن تدبُّر، وجمع أطراف الكلم، فلا حَادَ من نصيحة، تنصح بها العروس، قيد شعره، ولا قصَّر قيد أنملة، لو أخذت

كل عروس بهذه النصيحة لسعدت في حياتها الزوجية، بإذن اللّه تعالى.

•••

إن هذه النصيحة، بصَرف النظر عن قائلها، أو مؤلفها، تكشف جانباً من تفكير المرأة العاقل المجربة في ذلك الزمن، ومايطلبه الزوج من زوجته، وما يتطلع إليه المجتمع، وما هو مقياس السعادة الزوجية ومتطلباتها، تحدثت عن انتقال المرأة من بيت أهلها إلى بيت زوجها،وما يتطلب هذا الانتقال، في ضوء ما اعتادت عليه في بيت أهلها، وما يجب أن تعتاد عليه في البيت الجديد.

نصحتهافيما يجب أن تتخذه في بيتها مما يحبب إلى عملها، وما يحبب إليها مما يُنظر إليه منها، وما يجب أن تتزين به، وأجمل أدوات الزينة، ومايجب تجاه الأولاد وتربيتهم، وعن الطعام، وما يجب أن يكون عليه، وتحدثت عن موجبات السعادة، ومنفرات الهناء، فحثَّت على الأولى،وحذرت من الثانية، مع ذكر الأسباب، وإعطاء الحجج القوية، بثقة وعزيمة.

ويقال إن الابنة أخذت بنصيحة أمها، وكانت النتيجة سعادةً ما بعدها سعادة كما أشارت القصة في نهايتها.

والقصة وردت في عدة كتب منها كتاب (المختار من نوادر الأخبار ص: ١٢٤):

(لما تزوج الحارث بن عوف الكندي بالخنساء بنت ملحم، وكانت ذات جمال فائق، فلما زفّت إليه، أوصتها أمها، وقالت لها:

أي بُنيَّة،إن الوصيّة لو تركت لفضل أدب، أو جودة حسب، لتركتها عنك،لما أعلم من حسن أدبك، وفضل حسبك، وجودة عقلك، ولو استغنت النساء عن الرجال، لكنتُ أنا أغنى النساء، ولكنهن خُلقن للرجال، كما أن الرجال خلقوا لهن.

إنك قد خرجت من العش الذي فيه درجت، ومن البيت الذي فيه نشأت، إلى رجل لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فكوني له أمة، يكن لك عبداً، واحفظي خصالاً عني، لتبلغي بها أمراً، وتنشري بها ذكراً.

يا بُنيَّة، عليك بحسن الصحبة بالقناعة، والمعاشرة بالسمع والطاعة، فإن في القناعة راحة القلب،وفي السمع والطاعة رضى الزوج، وطاعة الرب، والزمي التفقد لموضع عينه وأنفه، واحذري أن تقع عينه منك على قبيح، وأن لايشم منك إلا طيِّب الريح.

واعلمي، يابُنيَّة، أن الكحل هو الحسن الموجود، والماء هو أطيب الطيب المفقود.

واحرصي على الرعاية لعياله، والحفظ لماله، فإن في رعاية عياله حسن التدبير، وفي حفظ ماله حسن التقدير.

والزمي التفقد لطعامه، والهدوّ وقت منامه، فإن حرارة الجوع مَلْهبَة وتنغُّص النوم مشقَّة متعبة، ولا تفشين له سرّاً، ولا تعصين له أمراً، فإنك إن أفشيت سرَّه، لا تأمني غدره، وإن عصيت أمره أوغلت عليك صدره.

ولا تظهري فرحاً إن كان تَرحاً، ولا اكتئاباً إذا كان فرحاً، وكلما زدته إعظاماً، زادك إكراماً، وآثري هواه على هواك في أكثر الأوقات، تفوزي منه بالمنح والهبات).

ثم إنها زَفّت إليه، وحظيت عنده، وولدت منه أربعة ملوك، وهم (شرحبيل)، و(حُجر)، و(مسلمة)، و(معدي كرب).

•••

ونظرة ثاقبة من امرأة بصيرة رأت ما لم يره زوجها، فنبهته إلى ما لم يتنبه له، وإن كان يشوب القصة من الشك ما يشوب أغلب القصص التي

يكون محورها الحجاج، ودون أن نؤكد صحتها بأدلة نستخرجها منها، أو نحلها بما قد تخبؤه من حقائق كامنة فيها، نقبلها على أنها نتاج فكر، ودور وجد أن المرأة في ذلك الزمن قمينة أن تقوم به، ثقة في عقلها، وما عرف عن سيدات ذلك الزمن، والقصة من كتاب: (المختار من نوادر الأخبار، ص: ١٢٥)، وهي قصة ممتعة، حبكت سيورها بيد صناع، إن لم يكن مفتعلها، فهو ناظمها،بعد سماع حديث مجالس، ومعروفٌ دَرْج مثل هذه الأحاديث:

(لما قدم الحجاج بن يوسف الثقفي

على الوليد بن عبدالملك، وهو يومئذ خليفة، فوجده قد دفن ابنه، وهو في المقابر،وكان على الحجاج يومئذ درع وكنانة، وهو متقلد بقوس عربي، فعمد إلى قبر عبدالملك بن مروان، وسلّم عليه، وصلى ركعتين، ولماركب الوليد مشى الحجاج بين يديه، فقال له الوليد:

أركب، يا أبا محمد.

فقال: يا أمير المؤمنين، دعني استكثر من المشي، فإن ابن الزبير واين الأشعث طالما شغلاني عنه، وكان قد قتلهما.

ثم ألح عليه، فركب معه.

ودخل الوليد إلى قصره، فتخفف

إلا من غلالة، ثم أذن للحجاج، فدخل، وأجلسه معه، وخلا به، وطال حديثه معه، فخرجت جارية من وراء الستر، وأشارت للوليد، فقال للحجاج:

أتدري، يا أبا محمد، ما قالت هذه الجارية؟

فقال: لا.

فقال: إن أم البنين (بنت عبدالعزيز ابن مروان)، ابنة عمي، بعثت لي تقول: ما مجالستك مع هذا الأعرابي المشتمل في سلاحه، وأنت في غلالة.

فأخبرتها أنك الحجاج، فراعها ذلك، وقالت: والله ما أحب أن يخلو معك،

وقد قتل خلقاً كثيراً.

فقال الحجاج: يا أمير المؤمنين، دع عنك مفاكهة النساء، يزخرفن القول، إنما المرأة ريحانة، وليست قهرمانة، فلا تُطعْهن في غير ذلك، فيوهنّك، ولا تشتغل بغير زينتهن، فإن رأيهن إلى أفن، ولا تملَّك المرأة من الأمور ما يجاوزها نفسها، ولا تطمعها أن تشفع في غيرها أبدا، ولا تطل الخلوة معهن، فإن ذلك أوفر لعقلك، وأبرز لفضلك.

ثم خرج من عنده، ودخل الوليد على أم البنين، زوجته، وأخبرها بمقالة الحجاج إلى آخرها.

فقالت له: يا أمير المؤمنين، إني أريد منك، لما يأتيك في غد، تأمره بالدخول عليَّ.

فقال: نعم.

فلما جاء الحجاج إلى الوليد، قال له:

يا أبا محمد، اذهب إلى (أم البنين)، فسلِّم عليها، وأقض من حقِّها ما يجب.

فقال: يا أمير المؤمنين، اعفني من ذلك.

قال: لابدّ منه.

فنهض الحجاج، وتجاوز الستر، فحجب على الباب طويلا، ثم أذن له، فدخل

إليها، فلم يؤذن له في الجلوس، فبقي واقفاً طويلاً.

فقالت له يا حجاج، أنت الممتّن على أمير المؤمنين بقتل ابن الزبير وعبدالرحمن ابن الأشعث، فوالله، لولا أنك أهون على الله من سائر خلقه ما ابتلاك برمي حجارة الكعبة، وبقتل ابن الزبير، وهو أول مولود في الإسلام (الصحيح أنه أول مولود ولد في المدينة المنورة بعد الهجرة)، وأما ابن الأشعث، فوالله، لقد والى عليك الهزائم، حتى ضجرت، ولولا أن أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان نادى في الشام، وأنت في أضيق من قراب، من

جند ابن الأشعث، وقد أظلتك رماحهم، وفاجأك كفاحهم، ما قويت عليه، ولا أقمت لحربه.

وأما ما أشرت به على أمير المؤمنين من ترك لذّاته، والامتناع من تفرغ أوطاره، ومن نسائه، فان كن ينفرجن عن مثل ما انفرجت أمك عنه، فما أحقَّه بالأخذ عنك، والقبول منك، وأن كن ينفرجن عن مثل أمير المؤمنين، فإنه غير قابل لقولك، ولا مصغ لمشورتك.

أخرجوه عني، قاتله اللّٰه.

قال: فدفع، وخرج، فمرَّ على أمير المؤمنين، الوليد، فقال له:

يا أمير المؤمنين، ألم أسألك أن تِعفيني من الدخول عليها؟!

قال: فماذا قالت؟

قال: والله، إنها وبختني، ولم تسكت عني، حتى تمنيت أن الأرض تبتلعني).

قصة جميلة، أوضحت بجلاء رأي الفئة، التي لاتُكن حباً أو احتراماً للحجاج، صيغت بطريقة تُلزم قبولها، وما اختيار (أم البنين)، لتلعب الدور الذي يكون الوسيلة الواضحة المقنعة، إلا لأنه لابد أنه عرف أن مثل هذا يأتي منها.

أما خوفها على زوجها الأعزل من

أعرابي جلف، متدرع بأحد أنواع الأسلحة المعروفة حينئذ، وهو من هو فيما يقال من سهولة استحلاله القتل، فأمر لا يستغرب من زوجة تحب زوجها، وهي في مقامها خير من يتنبَّه لمثل هذا.

ولكن يبقى أمر مهم: من هو الذي كان حاضراً وسجل هذا الحديث بتفاصيله، إن انسقنا مع الحديث، قلنا إن الرواية جاءت من الجواري، ودارت في المجتمع، وصاغها الأديب، لتتناسب مع ما قيل، وإن لم يكن الأمر كذلك، فقد شفى أحد أعداء الحجاج غليله، ونام قرير العين في أن كثيراً من الناس، على مر العصور،

سوف يقبلونها.

•••

والمرأة تَعُدّ بيت الزوجية مملكة لها، ولاتسمح لأحد -إذا قدرت- أن يدخل حدودها، فهي تحمي هذه الحدود بكل ما لديها من أسلحة، وتحتال لذلك بكل الحيل، وتبقى يقظة تتسمع لأي نبرة صوت، أو حركة فعل، فتأتي بقضها وقضيضها، ولا تترك وسيلة إلا اتخذتها، والغاية عندها في هذا تبرر الوسيلة، ومثلما تعرَّض الحجاج لنقمة أم البنين تعرض آخر لنقمة (أم سلمة) بما هو أشد وأنكى، ولكن هذا يستحق ما جاءه وأكثر، وهو خالد بن

صفوان الذي التقط مختاراً حَيَّة، وجعلها في حجره، مشى إلى الشرّ بقدميه، يسبقه نيَّة سيئة، ملأى بالنفاق، فانقلبت نيته نقمة عليه، وهي قصة طريفة، تُري كيف تسير الأفكار في الأذهان إذا دخلت مثل هذا الحيّز من التفكير، والقصة واردة في كتاب (الجليس الصالح الكافي، والأنيس الناصح الشافي، الجزء الثاني ص: ٤٥٦، تأليف: أبي الفرج الجريري [١]

(دخل خالد بن صفوان التميمي على أبي العباس (السفاح) وليس عنده أحد، فقال:

---

(١) تحقيق الدكتور إحسان عباس، عالم الكتب-بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

يا أمير المؤمنين، إني والله، ما زلت منذ قلَّدك الله - تعالى - خلافة المسلمين، إلا وأنا أحبُّ أن أصير إلى مثل هذا الموقف في الخلوة، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بأمساك الباب حتى أفرغ،فعل.

قال: فأمر الحاجب بذلك.

فقال: يا أمير المؤمنين، إني فكرت في أمرك، وأَجَلْتُ الفكر فيك، فلم أر أحداً له مثل قدرك، ولا أقل استمتاعاً بالنساء منك، ولا أضيق فيهن عيشاً، إنك ملّكت نفسك امرأة من نساء العالمين، واقتصرت عليها، فإن مَرِضَتْ مَرِضْتَ، وإن غابت غبت، وإن عَرَكَتْ (حاضت)عَرِكتَ،

وحرمت نفسك، يا أمير المؤمنين، التلذذ باستطراف الجواري، وبمعرفة اختلاف أحوالهن، والتلذذ بما يُشتَهَى منهن.

إن منهن، يا أمير المؤمنين الطويلة التي تُشتهى لجسمها، والبيضاء، التي تُحب لروعتها، والسمراء اللعساء، والصفراء العجزاء، ومولدات المدينة، والطائف، واليمامة، ذوات الألسن العذبة، والجواب الحاضر، وبنات سائر الملوك، وما يُشتهى من نظافتهن، وحُسن هندامهن.

وتخلل بلسانه، فأطنب في صفات ضروب الجواري، وشوّقه إليهن.

فلما فرغ خالد، قال: ويحك! ما سلك مسامعي، والله، كلام قطّ أحسن من هذا، فأعد عليّ كلامك، فقد وقع مني موقعاً.

فأعاد عليه خالد كلامه بأحسن مما ابتدأه، ثم قال: انصرف.

وبقي أبو العباس مفكراً فيما سمع من خالد، يُقسِّم أمره، فبينما هو يفكر، دخلت عليه (أم سلمة)، وقد كان أبو العباس حَلَفَ أن لا يتخذ عليها، ووفى لها، فلما رأته مفكراً، قالت له:

إني لأنكرك، يا أمير المؤمنين، فهل حدث أمر تكرهه، أو أتاك خبر ارتعت له؟

فقال: لا، والحمدلله!

ثم لم تزل تستخبره حتى أخبرها بمقالة خالد قالت: فما قلت لابن الفاعلة؟

فقال لها: ينصحني، وتشتمينه!؟

فخرجت إلي مواليها من البُخارية، فأمرتهم بضرب خالد.

قال خالد: فخرجت إلي الدار مسروراً بما ألقيت إلي أمير المؤمنين، ولم أشك في الصلة، فبينما أنا مع الصحابة واقفاً، إذا أقبلت البخارية تسأل عني، فحققت الجائزة والصلة، فقلت لهم:

ها أنذا.

فاستبق إليّ إحدهم بخشبة، فلما أهوى إليَّ غمزت برذوني، ولحقني، فضرب كفله، وتنادى إليّ الباقون، وغمزت البرذون، فأسرع، ثم راكضتهم، فَفُقْتهم، واختفيت في منزلي أياماً، ووقع في قلبي أني أُتيت من قبل أم سلمة، فطلبني أبو العباس، فلم يجدني، فلم أشعر إلا بقوم قد هجموا علي،

فقالوا:

أجب أمير المؤمنين.

فسبق إلي قلبي أنه الموت، فقلت:

إنّا لله، وإنّا إليه راجعون، لم أرَ دَمَ شيخ أضيع. فركبت إلى دار أمير المؤمنين، ثم

لم ألبث أن أذن لي، فأصبته خالياً، فرجع إليَّ عقلي، ونظرت في المجلس، (فإذا) ببيت عليه ستور رقاق.

فقال: يا خالد، لم أرك.

قلت: كنت عليلاً.

قال: ويحك! إنك وصفتَ لأمير المؤمنين في أخر دخلة عليَّ من أمور النساء والجواري صفةً لم يخرق مسامعي قط كلام أحسن منه، فأعده علي.

قال: وسمعت حساً خلف الستر.

فقلت: نعم، يا أمير المؤمنين، أعلمتك أن العرب إنما اشتقّت اسم الضرتين من الضر، وأن أحداً لم يكن عنده من

النساء أكثر من واحدة إلا كان في ضُرّ وتنغيص.

قال له أبو العباس: لم يكن هذا في الحديث.

قلت: بلى، والله يا أمير المؤمنين.

قال: فأنسيت إذاً، فأتمَّ الحديث.

قلت: وأخبرتك أن الثلاث من النساء كأثافي القدر، يغلي عليهن.

قال: برئت من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم إن كنتُ سمعتُ هذا منك، ولا مرّ في حديثك.

قلت: وأخبرتك أن الأربع من النساء شرٌ مجموع لصاحبهن، يُشَيِّبنَه، ويُهْرِمنَّه،

ويُحقرنَّه، ويُقسمنه.

قال: لاواللّه ماسمعت هذا منك، ولا من غيرك.

قلت: بلى، واللّه.

قال: أفتكذبني؟

قلت: أفتقتلني ! نعم واللّه، يا أمير المؤمنين، وأخبرتك أن أبكار الإماء رجال، إلا أنهن ليست لهن خُصى.

قال خالد: فسمعت ضحكاً من خلف الستر.

ثم قلت: نعم، وأخبرتك أن عندك ريحانة قريش، وأنَّك تطمح بعينيك إلى النساء والجواري؟!

قال: فقيل لي من وراء الستر:

صدقت، والله، ياعمّاه، بهذا حدثته، ولكنه غيّر حديثك، ونطق عن لسانك.

فقال أبو العباس: ما لك؟ قاتلك الله؟!

وفعل بك وفعل.

قال: وانسللت.

قال: فبعثْت إليَّ أم سلمة بعشرة آلاف درهم وبرذون، وتخت)

وهكذا نجحت أم سلمة أن ترد عدواً خطيراً، حاول أن يتسلل إلى حمى مملكتها بسلاح مقنع مخيف، ولكنها أجهزت عليه بما هو أقوى، ثم أبرمت

معه عقداً، لم يُتفاوض عليه، ختم بختم لا يمكن أن يُفضّ، أوله ضربة خشبة، وآخره مبلغ مُجزٍ من المال، فُرضّ الإثنان فرضاً على خالد.

وأخذ خالد بن صفوان درساً قاسياً في وجوب الابتعاد عن عش الدبابير، فقد أدرك أنه لن يجد فيه عسلاً.

•••

حتى القصص الصغيرة، العفوية، المتناثرة هنا وهناك، ترجح فيها كفة المرأة على الرجل، وهي تشبه بعض الطرائف الحديثة التي تُساق عن (المعاكسات) في الشوارع، والقصة واردة

في كتاب: (المختار من نوادر الأخبار، ص: ١٢٧:

(وقال بعضهم:

كان رجل أشيب اللحية، يسترها إذا رأى امرأة، فرأى امرأة تمشي، وهي ذات حُسن وجمال، فقال لها:

إن كنت عَزبة، فأنا أتزوج بك، وأدفع لك ما تختارين، وإن كنت متزوجة، فبارك الله لك فيه.

فقالت له: إعلم، يا هذا أن ليس لي زوج، وإنما في رأسي يسير بياض، وأظنك تكره ذلك.

فقال نعم:

وتركها، ومضى

فقالت له: على رسلك، والله ما بلغت من العمر عشرين سنة، ولا برأسي بياض، وإنما أعلمتك أني أكره منك ما تكرهه مني.

وهكذا غلبت هذه المرأة هذا الرجل، على صغر سنها، وكبره، وما يفترض فيه من حنكة جلبتها التجربة، ولكن الله ينعم على من يشاء من عباده.

•••

وفي الصفحة (١٢٨) من الكتاب نفسه قصة جميله، بصرف النظر عن حكم الحاكم (زياد)، وإن لم تكن وقعت، فقد

أحسن كاتبها عرضها، وأحكم غزلها، تبارى فيها الطرفان، ولكن الغلبة في عين الحاكم كانت للمرأة، لقوة حجتها، ولا أظن الحاكم رجع إلى الشرع في حكمه، بل غلبه منطق المرأة، ورقَّة عاطفتها، وحالها.

(عن أبي عبيدة، قال:

جرى بين أبي الأسود الدؤلي، وبين امرأته خصام في ابن كان لهما، وأراد أخذه منها.

فصار إلى زياد، والي البصرة، فقالت المرأة:

أصلح الله الأمير، هذا ابني، كان بطني

وعاءه، وحجري فناءه، وثديي سقاءه، أكلؤه إذا نام، وأحفظه إذا قام، فلم أزل كذلك، سبعة أعوام، حتى استوفى فصاله، وكملت خصاله، واستوكفت أوصاله، فحين أملَّت نفعه، ورجوت دفعه، أراد أن يأخذه مني كرها.

فأنصف بيني وبينه، أيها الأمير فقد رام قهري، وأراد قسري.

فقال أبو الأسود: أصلحك الله، هذا ابني، حملتُه قبل أن تحمله، ووضعته قبل أن تضعه، وأنا أنظر في أدبه، وأنظر في أوده، وأمنحه علمي، وألهمه حلمي، حتى كمل عقله، واستحكم قلبه. قالت

المرأة: صدق -أصلحك الله- حمله خفّاً وحملته ثقلا، ووضعه شهوة، ووضعته كرها.

قال زياد: أردد على المرأة ولدها، فهي أحقّ به منك، ودعني من سجعك.

•••

وفي الكتاب نفسه أيضاً في الصفحة (١٢٩)[١]، قصة يرويها الأصمعي، وهو المغرم بروايات الأعراب، من الرجال والنساء، وهي قصة فيها فصاحة قد لا تكون المرأة قالتها كما رويت لنا، ولكن الأصمعي اجتباها (سبورة)، تكون له

(١) وردت القصة في عدة كتب من التراث، ومنها "الأمالي" للقالي، ج٢ص١٤، طبعة منشورات المكتب الإسلامي، قطر.

وسيلة إيضاح، ونحن، بعاطفتنا، نقدّر له هذا، وننساق معه، لهذه الإشاعة الأدبية، وقد أحسن الأصمعي اختيار الأشخاص، والموضوع المتحدث عنه، والزمن الذي حدث فيه الحدث، وسير الرواية، وبدءها، ومنتهاها!.

(وعن الأصمعي قال:

دخلت أعرابية على عبيد الله بن أبي بكرة، بالبصرة، فوقفت بين السماطين، وقالت:

أصلح الله الأمير، وامتع به، حدرتنا إليك سنة اشتدّ بلاؤها، وانكشف غطاؤها، وجئتك لعَود صبية صغار،

وأخرين كبار، من بلدة شاسعة، تخفضني خافضة، وترفعني رافعة، لملمات من الدهر، أذهبن لحمي، وبرين عظمي، وتركنني والهة، أدور بالحضيض، وقد ضاق بي البلد العريض، فسألت أحياء العرب عن المعطي سائله، المبذول نائله، فدللت عليك.

أنا امرأة من هوازن، مات الوالد، وعدم الوافد، وأنت بعد الله -غياثي، ومنتهى أملي، فاصنع بي خصلة من ثلاث: إمّا أن تقيم أودي، أو تحسن رفدي، أو تردني إلى بلدي.

فقال عبيد الله: إجلسي، وكل ذلك لك

عندي. وأمر أن يجري عليها كما يجري على عياله).

•••

وهناك قصة استشهدتُ بها على بعض أساليب النحل، عنوانها (ما لم يحدث)، من المناسب أن أذكرها هنا، وهي، وإن كانت مؤلفة، إلا أنها تعطي صورة واضحة لما كان مقبولاً في ذلك الوقت، ونظرة الناس إلى المرأة، وفي هذه الحالة المرأة أم، مما يدل على تقدير الأم تقديراً متناهياً.

والقصة وردت في كتاب: (المختار من نوادر الأخبار ص ١٣٣)، وتُري ماجاء من رأي المرأة من فائدة، والحجة التي

أتخذتها ذريعة لتهدئة ابنها، حتى استطاعت أن تجعله يفعل خلافا لماكان نوى أن يفعله، وهذه القصة.

(جلس النعمان بن المنذر وعليه حلة مرصعة بالدر، لم ير مثلها، وأذن للعرب بالدخول عليه وكان فيهم أوس بن حارثة، قال:

فجعلت العرب تنظر إلى الحلة، وكل منهم يقول لصاحبه: ما رأيت مثل هذه أبداً، ولا سمعنا أن أحداً من الملوك قدر على مثلها.

قال: وأوس بن حارثة مطرق لا ينظر إليها.

فقال له النعمان: ما أرى كل من دخل عليَّ إلا استحسن هذه الحلة،وتحدث مع صاحبه في أمرها، إلا أنت، مع نقصان أمرهاعندي، فما رأيتك استحسنتها، ولا نظرت إليها.

فقال أوس: اسعد الله الملك،إنما تُستحسن الحلة إذا كانت في يد التاجر، وأما إذا كانت على الملك، وأشرق فيها وجهه، فنظري مقصور عليه، لا عليها.

فاسترجح عقله، واستحسن قوله، فلما عزموا على الإنصراف، قال النعمان:

اجتمعوا إليّ في غد فإني ملبس هذه الحلة لسيد العرب منكم.

فانصرفوا عنه، وكل يزعم أنه لابس الحلة في غد.

فلما أصبحوا تزَّينوا بأفخر الملابس، وتقلدوا بأصح السيوف، وركبوا أجود الخيول، وحضروا إلى النعمان، وتأخر عنه أوس بن حارثة، فقال له أصحابه:

مالك لاتغدو مع الناس إلى مجلس الملك؟ فلعلك تكون صاحب الحلة.

فقال أوس: إن كنت سيّد قومي، فما أنا سيد العرب عند نفسي، وإن حضرت ولم آخذها انصرفت منقوصاً، وإن كنت المطلوب بها، فسيعرف مكاني.

فأمسكوا عنه.

ونظر النعمان في وجوه القوم، فلم يَرَ أوس بن حارثة، فاستدعى بعض خاصته، وقال:

اذهب لتعرف خبر أوس.

فمضى رسول النعمان، واستخبر بعض أصحابه، فأخبره بمقالته، فعاد إلى النعمان، وأخبره بذلك.

فبعث إليه النعمان رسولاً، وقال:

احضر آمناً مما خفت، فحضر أوس بثيابه التي كان حضر بها بالأمس، وكانت العرب استبشرت بتأخره خوفاً من أن يكون آخذ الحلة، فلما حضر،

وأخذ مجلسه، قال له النعمان:

لم أرك غيّرت ثيابك في يومك، فالبس هذه الحلة، لتتجمّل بها، ثم خلعها، وألبسها له.

فاشتد ذلك على العرب، وحسدوه، وقالوا:

لا حيلة لنا فيه إلا أن نُرَغِّب الشعراء أن يهجوه بقبيح الشعر، فإنه لا يخفض رفعته إلا الشعر.

فجمعوا فيما بينهم خمس مئة ناقة، وأتوا بها إلى رجل يقال له جرول (الحطيئة)، وقالوا له:

خذ هذه، واهج لنا أوس بن حارثة، وكان

جرول، يومئذ، أشعر العرب، وأقواهم هجاءً.

فقال لهم: يا قوم، كيف أهجو رجلاً حسيباً، لاينكر بيته، كريما لا ينقطع عطاؤه، فاضلاً لا يطعن على رأيه، شجاعاً لا يضام نزيله، محسناً لا أرى في بيتي شيئاً إلا من فضله.

وقيل إنه قال:

كيف الهجاء وما تنفكُّ صالحة

من أل لام بظهر الغيب تأتيني

فسمع بذلك رجل يقال له بشر بن أبي خازم، شاعر، فرغب في البذل، وأخذ الخمس مئة ناقة، وهجاه، وذكر أمَّه

(سُعدَى)

فسمع أوس بذلك، فوجّه في طلبه، فهرب، وترك الإبل، فأتوا بها إلى أوس ابن حارثة، فأخذها وشد في طلبه.

وجعل بشر بن أبي خازم يطوف أحياء العرب، يلتمس عزيزاً يجيره من أوس، وكلّ من قصده يقول له:

أجرتك إلا من أوس بن حارثة، فإني لا أقدر أن أجيرك عليه.

وكان أوس قد أدلى عليه العيون، فرآه من كان يرصده، فقبض عليه، وأتي به إلى أوس.

فلما مثل بين يديه، قال له:

ويلك، أتذكر أمِّي وليس في عصرنا مثلها.

قال: قد كان ذلك، أيها الأمير.

قال: والله، لأقتلنَّك قتلة تحيا بها (سُعدَى)، يعني أمَّه.

ثم دخل أوس على أمِّه (سُعدَى)، وقال لها: قد أتيتك بالشاعر الذي هجاك، وقد آليت لأقتلنَّه قتلة تحيين بها.

قالت: يابُنيَّ، أو خير من ذلك؟

قال: ماهو؟

قالت: إنه لا يجد ناصراً منك، ولا مجيراً عليك، وإنَّا قوم لا نرى في اصطناع المعروف من بأس، فبحقي عليك إلا

أطلقته، ورددت عليه إبله، وأعطيته من مالك مثلها، ومن مالي مثل ذلك، وارجعه سالماً لأهله، فإنهم قد أيسوا منه.

فخرج اليه أوس، وقال:

ما تقول إني فاعل بك.

قال تقتلني، لا محالة.

قال: أتستحق ذلك؟

قال: نعم.

قال: إن (سُعدَى) التي قد هجوتها قد أشارت بكذا وكذا.

ثم حلّ كتافه، وقال له:

انصرف إلى أهلك سالماً وخذ ماأمرت لك به.

فرفع بشر يده إلى السماء، وقال:

اللهم أنت الشاهد عليَّ، لا أعود إلى شعرٍ إلّا أن يكون مدحاً في أوس بن حارثة.

وله، بعد ذلك، فيه قصائد مشهورة.

طاش عقل أوس لما علم بهجاء بشر لأمه، وله الحق في هذا،وله الحق في أن يعزم على مسكه،وقتله شر قتله،والغضب ريح تهب على سراج العقل فتطفؤه.

•••

ولكن المرأة الناضجة،التي جرّبت الحياة، وعرفت روح الصحراء، وما تقتضيه، وبعيداً عن الغضب سمحت

لإشعاع باهر أن يضيء عقلها، وذهنها، وروحها، فرأت ما لم ير ابنها، ورمت به إلى ما لم يرم إليه، وجَنَت من الشوك عنباً، وجعلت قلب الشاعر الشرير يَبْيَضّ، ويصفو، ويمتلئ بالخير، يبهر ضياؤه، وتصدح منه بلابل مدح، الواحدة منهاتساوي آلافا من حمر النعم.

إنها تسجل للمرأة فضيلة، تكتب بأحرف من نور.

هذا إن كان ماقيل قد حدث، وإن لم يكن فإن الكاتب، وهو أقرب لأهل ذاك الزمان ونسائه، قد أحسن بها الظن،

وسجل ما اقتنع أنه حق، ويمكن أن يحدث.

•••

وتُروى قصص عن بعض النساء تدل على عقل ناضج وتدبير متقن،ويزيد ذلك حدة كلما تعلّق الأمر بمملكة المرأة،والخوف على حدودها من أن تنتهك،ويدخل حماها من يشاركها فيها، أو يدخل مُتمسكناً حتى يتمكّن، فيخرجها منها، والقصة الآتية تدل على ذكاء خارق، مع صبر وأناة، ومعرفة بوقت التحرك والانقضاض، وهذه هي القصة:

عن المساور قال:

كان عندنا بالأهواز رجل متأهل، وكانت له أرض بالبصرة، وكان في السنة يأتيها مرة أو مرتين، فتزوج بها امرأة ليس لها إلا عمّ في الدار، وكان يكثر الأعذار بعد ذلك إلى البصرة، فأنكرت الأهوازية حاله، فدست من يعرف خبره، ثم احتالت، وبعثت من أورد خطّاً لعم المرأة البصرية (كذا)، وسألت من كتب كتاباً من عم البصرية إلى زوجها على خطه بأن ابنة أخيه تُوفيت، ويسأله القدوم لأخذ ما خلفت، ودست الكتاب مع انسان شبيه بالملاح.

فلما أتى بالكتاب خرج إليه،فدفع الكتاب، ولم يشك أن امرأته البصرية ماتت، فقال لامرأته:

إجعلي لي سُفرة.

قالت: ولم

قال: أريد الخروج إلى البصرة.

قالت: وكم هذه البصرة! قد رابني أمرك، وما أشك أن هنالك امرأة، فأنكر ذلك.

فقالت: إن كنت صادقاً، فاحلف بطلاق كل امرأة لك غيري.

فقال في نفسه: تلك قد ماتت، وليس عليَّ أن أحلف بطلاقها، فأرضي هذه!

فحلف لها بطلاق كل امرأة له سوى الاهوازية.

فقالت الأهوازية: هاتي السفرة، فقد أغناك الله عن الخروج.

قال: وما ذلك؟

قالت: قد طلقت الفاسقة:

وقصت عليه القصة، فعرف مكرها، وأقام [1].

•••

ومسك الختام في هذه العجالة قصة هي من أبهى القصص، وأكثرها إشعاعاً، وأنطقها لساناً عن فضل المرأة وحسن

(١) المحاسن والأضداد، للجاحظ ص: ١٧٧، دار إحياء العلوم-بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦م.

تبصرها وتدبرها، ورزانة عقلها، ونباهة ذهنها، ورؤيتها لأمر سياسي أنهى شدة استعر أوارها، وشغلت أذهان الرجال،لأن أعصابهم كانت ممسوسة، وتوالى عليهم أمور لم تدع لهم عقولاً تقبل ما يمرون به، كان هذا بعد صلح الحديبية، والرسول -عليه الصلاة والسلام- يرى ما لم يره صحابته - رضوان الله عليهم- فلم يُقبلوا على نحر الهدي أو حلق رؤوسهم،ولم يقم أحد منهم إلى ذلك، رغم أنه طلب هذا، كما يقال، ثلاث مرات.

فدخل عليه الصلاة والسلام- إلى

زوجته أم سلمة وأخبرها، فأبدت له رأياً حكيماً مباركاً، وقالت قولاً صائباً، عندما أشارت إليه بأن يبدأ هو بماطلب منهم فعله،فقام بذلك، فقاموا ونحروا، وتسابقوا إلى التقوى، فصار أحدهم يحلق للثاني وبعضهم يقصر، فدعا - عليه السلام- لمن حلق ثلاثاً ولمن قصر واحدة.

هذه إضاءة فكر امرأة، ويالهامن إضاءة رضي الله عنها.

رسالة المرأة

يرى كثير من الناس خطأ أن التنمية تنحصر أو تكاد في الذين يعملون في المكاتب، ولا يعطون أهمية تذكر للمزارع في حقله والتاجر في متجره والمرأة في بيتها، في حين أن كل فرد في المجتمع مساهم ولو بجزء ضئيل في التنمية والمرأة العاملة في بيتها مساهمة مساهمة فعالة وكبرى، سواء كانت أمّاً أم زوجة أم إبنة.

وهم يقولون إن المرأة نصف المجتمع فقط عندما يريدون أن يوهموا بأن نصف المجتمع معطل، لأن افتراضهم في الأساس

خطأ، ولأن لهم هدفاً مُخفياً يريدون أن يصلوا إليه، وخطة مبيّتة توهم بأن المرأة عندنا مضطهدة ومحتقرة، ويحاولون كما فعلوا في مجتمعات أخرى أن يجعلوها تتذمر وتتمرد، ولا يريدون لها التطور الطبعي الذي يأخذ شكله تدريجاً مع تقدم المجتمع.

رعاية المرأة لأبنائها رعاية متناهية: اختيار لعبهم، وترتيب فسحهم، انتقاء أصدقائهم، صلتهم بأقربائهم، الجلوس معهم لتفسير ما يغمض عليهم، وسرعة ازالة التفسير الخاطئ من أذهانهم عما يرونه في الحياة، كل هذه أعباء تحتاج

إلى تفرغ وجهد، وقلّ من النساء من تستطيع أن تتقنها، بَلْهَ أن تتركها للخدم والمربيات وتذهب إلى عمل ليست في حاجة ماسة إليه، وإنما هي (الموضة).

تذهب الواحدة إلى عمل ليست في حاجة ماسة إليه، وإنما هو تقليد ومجاراة لبعض التافهات، ولأنها لم تأت إليه لحاجة أو لرغبة أكيدة، تجدها تحاول أن تطلب أقل الأعمال جهداً، فإن طلبت عملاً في مدرسة فهي تريد أن تكون مديرة أو معاونة أو مراقبة لأن التدريس عبء.

هذا لا يعني أن ليس هناك مجال

للمرأة خارج بيتها بل إن لها أعمالا قد لا تكون قليلة إن كانت محتاجة إلي العمل، وعندها من الوقت ما تستطيع توفيره، فالتمريض مجال المرأة، والتدريس كذلك، والرعاية الاجتماعية، والجمعيات الخيرية، ولكن يجب أن يكون هذا في حدود الحاجة، وليس على حساب البيت بحال من الأحوال.

إن تربية الطفل هي أكبر عمل تنموي يمكن أن تفاخر به الأمم، لأن الطفل اذا نشأ صالحاً في دينه وخلقه ووطنيته، أفاد أمته، أما اذا لم ينشأ كذلك فهو خيبة لوطنه والسبب الأم في

كلتا الحالتين.

إننا في زمن صعب،ونحن في أشد الحاجة فيه إلى تربية الأولاد تربية صحيحة، والا قوبلنا من مستقبلٍ تربية أولادنا فيه تربية خدم، وبناتنا يتركن أولادهن للخدم فقط لأنهن يجدن عملاً يُجزي أن يُصرف جزء من الدخل منه على خادمة.

من أضرار الاقبال على الوظائف من قبل النساء اللاتي لسن في حاجة أن كثيراً من المحتاجات القادرات لم يجدن عملاً إلا في مناطق نائية، لأن أماكنهن في المدن سبقهن إليها من هن في غير حاجة.

والأخطاء تتجمع دون أن يعرف الانسان بها حتى تهد الأجسام.

والخلاصة في رأيي أن مكان المرأة الأول والأهم هو البيت، فان احتاجت، أو احتاجها الوطن في بعض المجالات، التي لايدخلها الرجل بعمله فلا مانع على ألا يكون ذلك على حساب البيت. البيت، البيت هو أهم ركيزة في المجتمع للرجل والمرأة. وأي إخلال بحقه ينعكس على خارج البيت، ويهز جذع التنمية وقد يكسره.

إننا مقبلون على رؤية أعداد من الرجال يتخرجون من الجامعات وسيحتاجون

إلى عمل، فاذا بقوا في البيت ونساؤهم في المكاتب انعكست أمورنا، وانعكاس الأمور إدبار ما بعده إدبار.

الظروف الاجتماعية تعطي المرأة مجالات عمل مختلفة، ولكن كما قلت يجب أن تكون الحاجة ملحة، والعمل مناسباً، ولكن ليس على حساب البيت بحال من الأحوال.

إن معدلات التنمية تتحقق بأي فرد في المجتمع مهيأ للعمل ذكراً كان أو أنثى، وأي منهما لا يساعد معدلات التنمية إذا عمل في حقل ثانوي، وله حقل أهم.

هذه عجالة أرجو أن أكون قد أعطيت

صورة لما أتصوره مجتمعاً يخلو من الأمراض الاجتماعية التي يظن أنها صحة، وهي ورم.

الفهارس

فهرس الموضوعات
فهرس الأعلام
فهرس الأماكن
فهرس الأشعار

١ـ فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
تمهيد	١٠
أمي وأبي	١٥
تحية للنساء	٣٧
رسالة المرأة	١٢٧

٢ـ فهرس الأعلام

الاسم	الصفحة
(أ)	
أبو الأسود الدؤلي	١٠٤، ١٠٥
أبو العباس السفاح	٩١، ٩٤، ٩٦، ٩٨، ١٠٠
أبو عبيدة	١٠٤
أسماء بنت يزيد الأشهلية الانصارية	٤٨
الأصمعي	١٠٦، ١٠٧
إطلالة على التراث (كتاب)	١٠، ٣٧ (هامش)
إعلام الناس: (كتاب)	٧٤
أل قاضي	٢١
أم الفضل بن سهل	٧٣

الاسم	الصفحة
أم المؤمنين بنت عبد العزيز بن مروان	٨٣، ٨٥، ٨٨، ٩٠
أم سلمة (زوجة السفاح)	٩٠، ٩٤، ١٠٠
أم سلمة (رضي الله عنها)	١٢٦
أوس بن حارثة	١٠١، ١١١، ١١٣، ١١٤، ١١٦، ١١٨، ١١٩
(ب)	
البخارية	٩٥
بشر بن أبي خازم	١١٥، ١١٦، ١١٩،
(ت)	
تميم:	٥٧
(ج)	
جرول (الحطيئة)	١١٤

الاسم	الصفحة
(ح)	
خالة حاتم طيء:	٤٧
حاتم طيء	٤٨، ٤٩
الحارث بن عوف الكندي:	٧٧
حجر:	٨٠
الحجاج بن يوسف:	٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٩، ٩٠
حمد الخويطر:	٣١، ٣٥
حمد القاضي:	٩
(خ)	
خالد بن صفوان التميمي:	٩٠، ٩١، ٩٤، ٩٥، ٩٧، ٩٩، ١٠٠
الخنساء بنت ملحم:	٧٧
(د)	
دار القمرين للنشر والإعلام	٥

الاسم	الصفحة
(ز)	
زياد بن أبيه	١٠٣، ١٠٤، ١٠٦
(س)	
سعاد:	٦٥، ٦٩
سُعدى، (أم أوس بن حارثة)	١١٦، ١١٧، ١١٨
سعدى:	٥٨، ٦٢، ٦٨، ٦٩، ٧٠
(ش)	
شرحبيل:	٨٠
(ط)	
الطيب صالح:	٨
(ع)	
عبدالرحمن بن الأشعث:	٨٢، ٨٦، ٨٧
عبدالعزيز الخويطر:	٥، ٦
عبدالله بن أبي بكرة	١٠٧، ١٠٨

الاسم	الصفحة
عبدالله بن الزبير:	٨٢، ٨٦
عبدالملك بن مروان:	٨٢، ٨٦
(ف)	
الفضل بن سهل:	٧٣
(ق)	
قريش	٩٩
(ك)	
الكميت	٦٥
(م)	
المأمون:	٧٣
محمد (صلى الله عليه	٣٦، ٤٩، ٥٠، ٥٢،
وسلم):	١٢٥
محمد الحمد الشبيلي:	٤٨
مروان بن الحكم:	٥٣، ٥٨، ٦٠، ٦١،
	٦٤، ٦٦، ٦٧، ٦٩،

الاسم	الصفحة
	٧٠، ٧٢
مسلمة:	٨٠
معاوية بن أبي سفيان:	٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٩، ٦٣، ٦٧، ٦٨، ٧٠، ٧١، ٧٢
معدي كرب:	٨٠
المقّري:	٣٧
(و)	
وسم على أديم الزمن (كتاب):	١٩، ٣١
(ن)	
نضر بن ذبيان	٦٥
النعمان بن المنذر:	١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٣

الاسم	الصفحة
(هـ)	
هوازن:	١٠٨
(و)	
الوليد بن عبد الملك:	٥٢، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٧

٣ـ فهرس الأماكن

الاسم	الصفحة
(أ)	
انجلترا:	٣٢
الأهواز:	١٢٢
(ب)	
البصرة:	١٠٤، ١٠٧، ١٢٢، ١٢٣
(ر)	
الرياض:	١٨، ٣٤
(ش)	
الشام:	٤٢، ٨٦
(ع)	
عنيزة:	١٨، ٢٥

الاسم	الصفحة
(ف)	
فرنسا :	٣١، ٣٥
(ك)	
الكوفة :	٤١، ٤٢
(م)	
مصر :	٣٢
مكة المكرمة :	١٨، ٣٢، ٣٣
المملكة العربية السعودية :	٣٢، ٣٥
(و)	
وادي الرّمة :	٢٥

٤ـ فهرس الأشعار

البيت	(ص)
(ب)	
أَبَى القلب إلا حُبَّ سلمى وبغضت إلى نســـــاء مالهنّ ذنـــــــوب	٦٩
(ر)	
هذا، وإن كان ذا جوع وإضرار أعزّ عندي من قومي ومن جاري	٧١
في القلب نار • والنار فيها استعار	٦٢
لاتجعلنّي فداك اللّه من ملك كالمستجير من الرمضاء بالنار	٦٩
(ل)	
معاوي ياذا الجود والحلم والفضل وياذا الندى والعلم والرشد والبذل	٥٨

البيت	(ص)
(ن)	
وُلِّيت ويحك أمراً لست تدركه	
فاستغفر الله من فعل أمرئ زان	٦٥
لاتجعلن أمير المؤمنين فقد	
أوفى بنذرك في رفق وإحسان	٦٦

نبذة عن المؤلف

- ولد عام ١٣٤٤هـ في مدينة عنيزة بالقصيم بالمملكة العربية السعودية.
- جزء من دراسته الابتدائية بعنيزة وجزء منها والثانوية في مكة المكرمة.
- حصل على الليسانس من دار العلوم بجامعة القاهرة عام ١٣٧١م.
- حصل على الدكتوراة في التاريخ من جامعة لندن عام ١٣٨٠هـ.
- عُيّن في العام نفسه أميناً عاماً لجامعة الملك سعود.
- عُيّن وكيلاً للجامعة عام ١٣٨١هـ حتى عام ١٣٩١هـ.
- درّس تاريخ المملكة العربية السعودية لطلاب كلية الآداب.
- انتقل من الجامعة رئيساً لديوان المراقبة لمدة عامين تقريباً، ثم وزيراً للصحة لمدة عامين تقريباً، ثم وزيراً للمعارف لمدة ٢١ عاماً.
- عُيّن في عام ١٤١٦هـ وزير دولة وعضواً في مجلس الوزراء.

كتب صدرت للمؤلف

* ألَّف عام ١٣٩٠هـ كتاب: «الشيخ أحمد المنقور في التاريخ».
* ألَّف عام ١٣٩٠هـ كتاب: «عثمان بن بشر».
* ألَّف عام ١٣٩٥هـ كتيب: «في طرق البحث».
* طبع في عام ١٣٩٦هـ كتابه عن الملك «الظاهر بيبرس» باللغتين العربية والإنجليزية.
* حقق عام ١٣٩٦هـ كتاب: «الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر» ونشره.
* حقق كتاب: «حسن المناقب السريّة المنتزعة من السيرة الظاهرية» لشافع بن علي، ونشره عام ١٣٩٦هـ.
* من حطب الليل: الطبعة الثانية عام ١٣٩٨هـ، والثالثة عام ١٤٢٥هـ.
* ألَّف عام ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م كتاب: «قراءة في ديوان محمد بن

عبدالله ابن عثيمين».

* ألَّف بين عامي ١٤٠٩ و ١٤١٤هـ كتاب: «أي بُنيّ» في خمسة أجزاء.

* ألَّف منذ عام ١٤١٤هـ كتاب: «إطلالة على التراث» سبعة عشر جزءًا.

* ألَّف عام ١٤١٨هـ كتاب: «يوم وملك».

* ألَّف منذ عام ١٤١٩هـ وحتى ١٤٢٧هـ ثلاثة أجزاء من كتاب: «ملء السلة من ثمر المجلة».

* ألَّف عام ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠١م حديث الركبتين.

* ألَّف عام ١٤٢٤هـ كتاب: «لمحة من تاريخ التعليم في المملكة العربية السعودية».

* ألَّف عامي ١٤٢٥/ ١٤٢٨هـ جزأين من كتاب: «دمعة حرى»، والطبعة الثانية مزادة.

* ألَّف من عام ١٤٢٦ حتى ١٤٢٩ هـ عشرة أجزاء من كتاب: «وسم على أديم الزمن ـ لمحات من الذكريات».

* ألَّف عام ١٤٢٨ هـ/ ٢٠٠٧م كتاب: «بعد القول قول».

* ألَّف بين عامي ١٤٢٨/ ١٤٢٩ هـ كتاب: «رصد لسياحة الفكر» في أربعة أجزاء.

* ألَّف عام ١٤٢٨ هـ كتاب: «السلام عليكم».

* ألَّف عام ١٤٢٩ هـ كتاب: «نزّ اليراع».

المرأة وتربيـــة الأســـرة

❖ يقول المفكر الغربي المعروف/ جوستاف لوبون :

(ينظر الشرقيون إلى الأوربيين الذين يُكْرِهُون نساءهم على العمل، كما ننظر إلى حصانٍ أصيلٍ يستخدمه صاحبه في جرِّ عربة، فعمل المرأة عند الشرقيين هو تربية الأسرة، وأنا أشاركهم رأيهم مشاركة تامة، فالإسلام، لا النصرانية ، هو الذي رفع المرأة من الدرك الأسفل الذي كانت فيه، وذلك خلافاً للاعتقاد الشائع).

❖ هذا الكتاب الصغير في حجمه الكبير في معانيه جاء عنوانه كبهاء عمن يتحدث عنهن (النساء رياحين)، أليس يتحدث عن أرق مخلوقات الله (النساء) إلا ماندر بالطبع..! أما مؤلفه فهو المربي ذو التجربة الحياتية الطويلة معالي د. عبدالعزيز الخويطر.

من هنا يأخذ هذا الكتاب قيمته ومكانته، وكم نتوق بقدر ما تُرسخ أفكار هذا الكتاب من قيمة المرأة، أن تغير مثل هذه الطروحات الواعية من قناعات بعض الرجال حول المرأة ودورها ورسالتها!!

. الناشر.

مطبعة سفير : الرياض ☎ ٤٩٨٠٧٧٦ - ٤٩٨٠٧٨٠

ردمك : ٢-٠٧٢٠-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

دار القمرين للنشر والإعلام
الرياض ١١٤٩٩ ـ ص . ب ٤٠١٠٤
مكتب ٠١٤٥٦٢٢٠٦ ـ فاكس ٠١٤٥٦٥٥٧٦
info @ alqamarain.com